جامع القرويين

من بحث شارك به الاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله في مؤتمر رسالة المسجد الذى دعت اليه رابطة العالم الاسلامى وانعقد من 15 رمضان 1395 — 20 رمضان 1395 (20 شتنبر 1975 — 25 شتنبر 1975)

عندما تولى يحيى بن محمد بن ادريس ملك المغرب عام 234 هـ كثر الواردون على فاس (1)فكان ممن قدم من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى الذى استقر مع ذويه فى عدوة القرويين وخلف بعد موته بنتين وهما : (فاطمة ام البنين ومريم) وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه فى وجوه البر فعلمتا ان الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين (2) بالناس فشرعت فاطمة فى بناء جامع عدوة القرويين ومريم فى بناء جامع الاندلس (3) .

وقد وقع الشروع فى بناء جامع القرويين فى رمضان 245 هـ ونصبت قبلته على غرار قبلة جامع الشرفاء الذى اسسه المولى ادريس ، وكان يحتوى اول الامر على اربعة بلاطات ابتداء من القبلة ، ولكل بلاط اثنا عشر قوسا من الشرق الى الغرب ، واقيم المحراب مكان الثريا الكبرى كما جعل فى مؤخره صحن صغير وصومعة واحتفظ بهذا الهندام المعمارى الى ان كثرت العمارات واتصل البناء فى ارباض المدينة من سائر الجهات وجرى امر زناتة بارض المغرب سنة 307 هـ فازيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره واقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره وصنع له منبر من خشب الصنوبر .

وعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الاندلس وبايعه اهل فاس قام العامل احمد بن ابى بكر الزناتى بتوسيع المسجد منفقا عليه (من اخماس غنائم الروم) فزاد اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف (اى الشمال) فى موضع الصحن الذى كان فيه بلاط واحد بعد ان هدم الصومعة لتطاول اشرافها على الدور المجاورة واصبح مصعدها يضم مائة درجة ودرجة وغشى بابها المواجهة للقبلة بصفائح النحاس الاصفر وتم ذلك كله عام 345 هـ حسبما فى التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل فى اعلاها قبة صغيرة ووضع فى دورانها تفاتيح مموهة بالذهب فى زج من حديد وركب فى الزج سيف الامام ادريس مؤسس المدينة وبنيت تحت القبة المذكورة قبة اكبر منها لجلوس المؤذنين

---

(1) اسست القرويين بعد بناء فاس بثلاثة ارباع قرن وقد اختلف فى تاريخ بناء فاس ، وافرد ليفى بروفنصال بحثا فى الموضوع اقتبس فيه من مؤرخين كابى بكر الرازى المتوفى عام 346 والذى يقول بان بانى فاس ادريس الاول الذى جاء الى المغرب عام 172 ومات عام 174 وبنيت المدينة فى نظره خلال هذه الفترة ، ولاحظ ابن سعيد ان ادريس الاول لم يؤسس سوى عدوة الاندلس ونقل ابن الابار عن ابى الحسن النوقلى ان ادريس الثانى بنى عدوة القرويين عام 187 يوجد فى مكتبة باريس درهم سك بفاس عام 189 اى قبل التاريخ المادى لبناء فاس بعامين ، كما يوجد درهم فى متحف كاركوف بروسيا صك بفاس عام 185 وهو التاريخ الذى يعطيه الحسن بن محمد الوزان لبناء فاس ..

(2) لاحظ ابن أبى زرع ان عدد مساجد فاس انتهى ايام المنصور و الناصر الموحدين الى 782 مسجدا علاوة على 122 ما بين سقايات ودور اوضاء وحمامات — الانيس المطرب ج 1 ص 64 .

(3) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس لعلى الجزنائى طبعة 1340 ص 34 .

لاشاعة الاذان فى اوقاته ، وكان فيها بيت الراعى منهم لاوقات الليل وانصداع الفجر وبندائهم يقتدى باقى المؤذنين بصوامع المدينة ، وتوجد بمواضع من المنارة بلاطة رخام وسط كل منها قائم يستدل بصدود ظله على خطوط بطول ازمان النهار ومرور ساعته ، وفى عطفات ادراجها سرج زاهرة الضياء يمر عليها الليل ، وفى عهد يوسف المرينى 675 هـ نصب بدن من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقاب يخرج منها الماء بقدر معلوم الى ان يصل الخطوط فيعلم بذلك اوقات الليل والنهار ، وقد صنعت فى غرفة مطلة على الصحن مجانة على يد المعدل محمد الصنهاجى عام 714 هـ وهى عبارة عن مجن من خشب الارز جعل فى ركن الغرفة عن يسار المستقبل ووضع فى داخله بدنان كبيران من فخار احدهما اعلى من الاخر يحتوى على ماء وبالاسفل انبوب من نحاس يهبط منه الماء فى البدن الاسفل بقدر معلوم ، وجعل فى طرف الجنح (الالة) مفطس (جفنة) وكذلك فى جانبى التفطيسة رسمت فيها الساعات ودقائقها واوقات الليل والنهار وجعل الموقت المسطرة معلقة فى (158) خارجا من الجنح يجرى فى حفر التفطيسة طالعا وهابطا ، وجعل على وجه الماء الذى يجتمع فى البدن الاسفل جسما مجوفا من نحاس على هيئة الاطرفة (اى الجوانب الداخلية) معلقا فى الطرف الداخلى على العلو فاذا طلع الجسم بطلوع الماء الذى يجتمع فى البدن الاسفل طلع الطرف الخارج من التفطيسة وطلعت بطلوعه المسطرة — وفى ايام ابى عنان 749 هـ جعل خارج الجنح دائرة عليها شبكة الاسطرلاب تدور رسومه ومتى طلعت المسطرة عرف بها الوقت ، كما اقيمت هناك رمليات لاختيار الوقت مع اسطرلابات اخرى ، ومنذ هذا العهد جعلت صارية ينشر فيها العلم ايذانا باوقات الصلاة النهارية ومنار لاوقات الليل وقد صنع ابو عنان (758 هـ) « مجانة بطيسان وطسوس من نحاس » مقابلة لباب المدرسة التى اسسها بفاس « وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة فى طاس وتنفتح طاق » .

وقد بنى المظفر بن المنصور بن ابى عامر المنبر عام 388 هـ من « عود الابنوس والعناب وغيرهما » فخطب عليه الى ايام على بن يوسف بن تاشفين حيث صنع عام 538 هـ منبرا جديدا » ، من عود الصندل والابنوس والتارنج والعناب وعظم العاج » مع غشاء من جلد وكتان وذلك على يد نجار كان اماما فى اللغة والشعر (1) وكلف صنعه نحو 3800 دينارا فضيا .

وقد زيدت بجامع القرويين فى مختلف العصور بناءات جديدة منها الباب الاكبر بسماط الموثقين (العدول) عام 505 هـ وبخارجه قبة الجص المقربصة (عام 617 هـ) وباب الشماعين (عام 518) (2) مع قبعتين احداهما بالداخل من الجص والاخرى من الارز بالخارج (3) .

وفى عهد على بن يوسف اشتريت دور كان اكثرها فى ملك اليهود ، وزيدت فى المسجد عشرة بلاطات من الصحن الى القبلة (4) والقبة باعلى المحراب « بالجص المقربص الفاخر الصنعة » ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد واصناف الاصبغة وركب فى الشماسات التى بجوانب القبلة اشكال متقنة من انواع الزجاج والوانه (ثم غشيت ابواب الجامع) بصفائح النحاس الاصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن (كل ذلك عام 533 هـ) وقد لاحظ ابن ابى زرع ان هذا الفن كان يبهر الناظرين ، فلما دخل عبد المومن بن على عام 540 خاف الفقهاء

---

(1) زهرة الآس ص 42 .

(2) يذكر صاحب القرطاس ان كتابات التأسيس مؤرخة بعام 528 (ج 1 ص 85) ووهم صاحب الجذوة فاعطى تاريخا محرفا هو 710 .

(3) احرقت القبة الخشبية عام 571 فصنعها الموحدون من الجص عام 600 من بيت المال ، فى حين صنع المرابطون بابى السماط والشماعين مع القبتين من مال الاحباس .

(4) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا موازيا للقبلة وقد لاحظ جورج مارسى ان هذا الاسلوب يرجع عهده الى صدر الاسلام ونجده فى مصر (جامع عمرو وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب فى مساجد فاس (فن الاسلام) ص 95 .

والاشياخ ان ينتقد ذلك النقش والزخرف لان الموحدين قاموا بالتقشف فغطى البناؤون النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض .

وقد علق جورج مارسى على هذا الحدث فزعم انه قصة ملفقة لتبرير البياض والفراغ الملحوظين فى قبة المحراب (1) الا ان الحفريات التى قامت بها مصلحة الفنون الجميلة منذ عام 1952 اكدت حكاية المؤرخ العربى ، فقد كشف عن نقوش رائعة غير انها لا تحتوى على اى توريق ذهبى ، وقد لوحظ ان اصناف الاصبغة المشار اليها من طرف صاحب القرطاس هى الازرق والاحمر والمغرة الصفراء ، وما زالت الالوان متماسكة وفى رائق غضاضتها ، ويظهر ان مزيج الاصباغ كان يحتوى على مح البيض الذهبى اللون وان الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق اشعة النور المنعكس من النوافذ .

وقد جهز الجامع بمستودع توضع فيه اموال الجامع وامانات الناس وكان محصنا بخشب الارز وبخمس منافيس بصفائح من حديد مقلوبة « وبنيت دار الوضوء بخمسة عشر بيتا مع طاق فى سقف كل بيت للانارة وانبوبة نحاسية ينصب منها الماء » فى نقير محفور من حجر ، وفى سمكها قبة من جبس مقربصة مرقشة بأنواع الاصبغة وجعل بوسطها بيلة من الحجر الاحمر مع ثقوب من نحاس مموه بالذهب والبيلة والخصة كلاهما من عمل رجل سجلماسى صنعهما له رجل آخر « من اهل المعرفة بالبناء والهندسة » اما العنزة فقد اقيمت عام 688 « وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب واتقان الالصاق ودقة الخرط والنقش ما يقتضى بالعجب » (2) وصنعت سقاية منمقة (بالجص والحجر المنجور وانواع الصبغة) كما جعلت على المحراب عام 712 مقصورة من خشب الارز الغيت بعد ذلك ، اما الخزانة فقد اسسها ابو عنان المرينى عام 750 وجهزها بالكتب المنوعة وعين قيما لضبطها ومناولة مصنفاتها .

وللجامع 18 بابا و 300 سارية — عشر منها من حجر ملون وثلاثة تقع تحت الثريا الكبرى تبصر منها جميع ابواب الجامع — و 21 بلاطا و 130 ثريا من النحاس مختلفة الالوان والصناعات والاشكال والهيآت .

اما جامع الاندلس فقد وقع الشروع فى بنائه كذلك عام 245 وكان فيه ست بلاطات وصحن صغير وزاد فيه عامل الناصر الاموى الصومعة عام 345 (3) ونقلت اليه الخطبة من جامع الاشياخ قبيل ذلك (321) وبعد نحو من ثلاثة قرون عام (600) امر الناصر الموحدى ببناء الباب الكبير الذى فيه درج بأسفلها شبك من خشب الارز فيه ثلاثة ابواب وفى الاوسط بيلة من الحجر الاصفر ينفجر بها الماء من وادى مصمودة وباعلى الباب قبتان احداهما من جص مقربص الداخل . والثانية من خشب الارز .

كما امر الناصر ببناء سقاية ومدخل لمصلى النساء ومصرية لائمة الجامع ودار للوضوء بخصتها تحاكى التى بجامع القرويين وعدد بلاطاته بعد سنة 695 خمس عشرة من الشرق الى الغرب وثلاث عشرة من القبلة الى الجوف وتسعة ابواب و 134 سارية .

وكانت فاس فى هذا العصر كما وصفها المراكشى « حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ... رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل اكثرهم مدينة فاس ، فهى اليوم فى غاية الحضارة واهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم افصح اللغات فى ذلك الاقليم ، وما

---

(1) كتاب الفن الاسلامى طبعة 1926 ج 2 ص 302 وقد اكد مارسى هذا الزعم فى الكتاب الذى صنفه عام 1954 وهو الهندسة المعمارية الاسلامية فى الغرب ص 188 الا ان الاستاذ طيراس ايد مقالة ابن ابى زرع .

(2) زهرة الآس ص 65 .

(3) حسبما فى عتبة بابها — زهرة الآس ص 81 .

زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب » (1)

وقد لاحظ كوستاف لوبون ان مدينة فاس كانت تزاحم بغداد فى القرن العاشر الميلادى فكان بها نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية (2) وقد زعم استاذ ايطالى هو لويجى روسوا انه اشترى من فاس مخطوطا نادرا من عشاريات تيتليف حول التاريخ الرومانى .

وقد وصف كابريال شارم مدينة فاس بانها اول مدينة مقدسة بعد مكة وانها كانت مركز القوة العربية فى عنفوان ازدهارها والعاصمة الفكرية والروحية للغرب الاسلامى بفضل معاهدها الخالدة ومساجدها الماجدة ، وذكر مارسى ان افريقية نفسها وهى الوطن العتيق لعلماء الاسلام اصبحت تتلمذ لبرابرة الغرب .

وشبه على باى العباسى هذه المدينة بأثينة لوفرة علمائها ومعاهدها ولاحظ ليفى بروفنصال انها لم تكن اقل مكانة من عواصم الاسلام الاخرى ، نعم فى هذه المدينة تبلورت الحضارة العربية التى تفتقت بالمغرب فتلالات اشعتها على اوروبا وقد احتفظت فاس على ممر العصور باشعاعها فهى ما زالت دار العلم وجامع القرويين ما زال اول مدرسة فى الدنيا .

وذكر مارمول انه كان بفاس 200 مدرسة ، ونقل الكانونى فى شهيرات نساء المغرب عن مؤرخ اوربى خصص كتابا لفن الاسنان بالمغرب لاحظ فيه ان مدينة فاس كان بها فى القرن الرابع للهجرة (مدرسة للطب) وقد احيلت المدرسة المرينية بدار المخزن فى فاس الجديد حوالى عام 1844 م الى مدرسة للمهندسين نظم فيها السلطان دراسة العلوم الحديثة

وقد اكد مولاى عبد الرحمن بن زيدان ان خريجى (مدرسة البوليتكنيك) (الفنون) التى اسسها السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بفاس الجديد تابعوا دراستهم فى معاهد انجلترا (مثل الصدر الاعظم الجباص) وايطاليا (مثل محمد بنانى العلمى) .

وكان بجامع القرويين اواخر القرن الماضى 700 طالب ونحو الاربعين استاذا وظل العدد جامدا الى ما قبيل الاستقلال حيث اصبح ينيف على 6 الاف وكان هؤلاء الطلبة يسكنون بالمدارس ويتمتعون بنظام الخبزة الذى عوض الان بمنح دراسية ومطاعم مدرسية وداخلية منظمة فى الشراردة .

---

(1) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب سلا عام 1397 ص 221

(2) حضارة العرب ــ الطبعة الفرنسية ص 263 وقد ذكر دلفان (ص 81) ان هذه الخزانة كانت تحتوى على 30000 مجلد كما ذكر كودار (وصف تاريخ المغرب ج 2 ص 376) ان يعقوب المرينى استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية واهداها الى القرويين ، ولاحظ ميلى (كتاب الموحدين ص 101) ان يعقوب الموحدى كانت له خزانة تضاهى مكتبة الخليفة الاموى الحكم الثانى وقد اهداها كذلك الى القرويين وفى عهد المولى زيدان السعدى اخذس قنصل فرنسى اربعة الاف مخطوط عربى وباعها لاسبانيا فكانت من نواة الاسكوريال . . . .